المضامين الفكرية في القصص القرآني
سورة هود اختياراً

Intellectual contents in Quranic stories
Surat Hud as an option

م. د. مرتضى عبد الأمير محمد
جامعة الشطرة - كلية التربية للبنات

Researcher name: Lecturer Dr. Murtada Abdel Amir Muhammad
Workplace: Shatra University/College of Education for Girls

الملخص:
يهدف البحث الى بيان ما تضمنته القصة القرآنية من لماحات فكرية، وسنن تاريخية، فقد جاءت قصص القرآن مشحونة بالمضامين الفكرية التي تمثل بدورها نقاط انطلاق وأسس ارتكاز في المنظومة الاجتماعية الصالحة التي يهدف القرآن الكريم الى تكوينها، إذ لا يخفى ما لسنن التاريخ الواردة في القرآن من دور بارز في تنظيم سلوك الإنسان، ورسم ملامح المستقبل اهتداءً بأحداث الماضي التي ذكرها القرآن الكريم، كما لا يخفى ما للقصة في القرآن من دور في هداية المجتمع الى أدب الحوار، والطريقة المثلى في التعامل مع الدعاة الى الله، وذلك من خلال ما ورد فيها من حوار بين الانبياء وأقوامهم وما آلت اليه احوال القوم بحسب مواقفهم من أولئك الانبياء، ومن السور التي وردت فيها بعض الاحداث التفصيلية، للأنبياء هي سورة هود، فبعد استقراء هذه السورة تبين أنَّها تحمل بين طياتها الكثير من المضامين الفكرية، والسنن التاريخية، ومن أجل بيان ذلك كان هذا البحث.

Summary:
The research aims to clarify the intellectual glimpses and historical laws contained in the Qur'anic story. The Qur'anic stories were loaded with intellectual contents, which in turn represent starting points

and foundations for the good social system that the Holy Qur'an aims to create, as it is no secret that the historical laws mentioned in the Qur'an are A prominent role in regulating human behavior and shaping the features of the future, guided by the events of the past mentioned in the Holy Qur'an. It is also no secret that the story in the Qur'an has a role in guiding society to the etiquette of dialogue, and the ideal way in dealing with callers to God, through what is mentioned in it. A dialogue between the prophets and their people and what the people's conditions turned into according to their positions towards those prophets, and one of the surahs in which some detailed events were mentioned, regarding the prophets, is Surat Hud. After extrapolating this surah, it became clear that it carries within it many intellectual contents and historical traditions, and in order to explain that This was research.

المقدمة

بسم الله وله الحمد ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى أهل بيته الميامين واصحابه المنتجبين...

يعد القرآن الكريم ميداناً رحباً للدراسات المختلفة، فهو نص تتجاذبه معارف عديدة ، إذ يمثل المحور الرئيس لمختلف العلوم، فقد شغلت الدراسات فيه أوقات وجهود المسلمين ، وربما شغلت حتى غير المسلمين، لما فيه من أرضية خصبة للمعارف المتنوعة ، ولعل من اهم الجوانب المعرفية التي زخر بها النص القرآني هو جانب استنتاج النظريات التربوية بعد فهم المعاني الاجمالية لآياته، والمضامين الباطنة التي يكتنفها النص.

إن من السور القرآنية التي تحمل في مضانها جملة من النظريات الفكرية، والمضامين التربوية تلك التي جاءت حاكية قصص الامم الغابرة، لما فيها من سنن تاريخية تحققت بتلك الامم وهي قابلة للتحقق أيضاً فيمن يسلك سلوكهم كونها تتصف بالاطراد ، كما انها تحمل كم هائل من الدروس التربوية التي وردت لتكون عبرة للأمم السالفة ، ومن تلك السور سورة هود، التي تضمن قصص عدد من الأنبياء ، وكشفت عن سلوكهم مع اممهم وسلوك اممهم معهم ، كما كشفت عن الاجراء الذي اتخذه الله فيهم بعد عنادهم وجحودهم ، ففي هذه الحوادث جملة من النظريات الفكرية سوف اتطرق خلال البحث الى بعضها على نحو الاختصار ، في مبحثين تناولت في أحدهما وهو الاول سنن التاريخ في القرآن بشكل عام ثم ما ينطبق من هذه السنن على احداث هذه السورة ، وفي المبحث الثاني تناولت الجانب الفكري الاخر ، وهو الحوار مع الآخر في ضوء حوار الانبياء الذي تضمنته السورة، أما في المبحث الثالث فكان الحديث عن التحديات التي تواجه حركة الاصلاح من خلال النظر في النصوص الواردة في سورة هود لبيان ذلك ، وربطها بما نعيشه اليوم من واقع، وقد تقدم مبحث تمهيدي بينت فيه الملامح العامة للسورة ، وختمتها بخاتمة فيها خلاصة لأهم النتائج التي يمكن ملاحظتها خلال البحث، ولا ادعي انني احطت بما في هذه السورة من ابعاد فكرية،

بل هي محاولة بسيطة أسأل الله التوفيق فيها بإذنه.

مبحث تمهيدي

الملامح العامة لسورة هود (ع)

سورة هود هي السورة الحادية عشر بترتيب المصحف الشريف، عدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة آية، تأتي قبل سورة يوسف وبعد سورة يونس بترتيب القرآن الكريم، وهي سورة مكية بالإجماع إلا هذه الآية الكريمة حسب ما روى عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[1].

سميت باسم النبي هود -عليه السلام- لتكرار اسمه في السورة خمس مرات، ولأن قصته جاءت أطول مما حُكي عنه في غيرها، وذُكر قوم عاد بأنهم قوم هود كما جاء بالآية الكريمة {وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ * أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ * أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}[2] في هذا المقال سيتم التعرف على مقاصد سورة هود وعلى فضل السورة والدروس المستفادة منها وبعض القصص المذكورة فيها.

أولاً: **فضل سورة هود**

قبل التعرف على مقاصد سورة هود يجب معرفة فضلها، لهذه السورة الجليلة عدة أمور مفيدة، أهمها أنها خليقة بالتأمل والتدبر لما جاء فيها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم، ولِما فيها من تثبيت قُلوب المؤمنين بالله تعالى وإرهاب أهل العناد والكفر لذلك قال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}[3]،وفيها أيضًا أخبار كثيرة عن يوم القيامة والأهوال ومن هذه العلوم الذي أعلم الله عباده بها، ذُكر أن النبي محمد -عليه الصلاة والسلام- شاب شعر رأسه من سورة هود ونظائرها من السور.

وجاء من أفضال سورة هود أن يصبر الإنسان وينتظر الفرج من الله تعالى، والإنسان يحُاسب بعمله وليس بعمل أحد غيره، وتحريم الشرك وترك المشركين، ومن أهم فضلها تذكير قارئها بعقاب الله تعالى للقوم المشركين، حيث ذُكر فيها أقوام نوح وهود ولوط وغيرهم -عليهم السلام.

ثانياً: **مقاصد سورة هود**

بعد التعرف على سورة هود وفضلها، سيتم تسليط الضوء على مقاصد سورة هود، حيث ورد فيها العديد من المقاصد التي ذكرها الله تعالى لعبادة في السورة الكريمة، وصف الله تعالى الكتاب الكريم بالأحكام والتفصيل في حالات التبشير والنذير، وأكد على العناية بجميع مخلوقاته بالأرض وقدرته على البعث وهذا يدل على تفرد الله عز وجل بالمُلك، اعتماد أسلوب الدعوة بالترهيب وجاء ذلك في قوله تعالى: {ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير}[4]، وجاء بالسورة إثبات لدعوة النبي محمد -عليه الصلاة والسلام- بالإضافة لمحتواها والذي اشتمل على أصول عقائد الإسلام من التوحيد والعمل الصالح والجزاء والبعث، وبينت سنن الله بالأمم السابقة كعقاب الظالمين والمفسدين وتوضيح أن سبب الظلم هو إتباع أكثرهم النعيم والشهوات التي

أدت إلى فسوق وطغيان وإسراف واستهزاء بالأنبياء، وتحدثت السورة الكريمة عن صفات وأخلاق النفس من الفضائل والرذائل التي هي مصدر الحسنات والسيئات، وبينت فضائل الرسل والمؤمنين، ووضحت أن الطغاة والظالمين عاقبتهم وخيمة، وجاءت السورة لتثبيت قلب النبي رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وتثبيت المؤمنين معه، فيما أفادت قصة نوح -عليه السلام- المذكورة بالسورة أن محبته لابنه هي فطرة إنسانية وأن حقوق الأبناء على الوالدين مقررة بالشرع دون عصيان الله تعالى.

قصة نوح

بعد التعرف على مقاصد سورة هود يجب التوقف قليلًا عند أبرز القصص التي جاءت فيها والتي وضعها الله تعالى لأخذ الدروس والعبر منها، ومن أبرز القصص قصة نوح -عليه السلام- مع قومه، حيث دعاهم لسنوات طويلة ولم يؤمن معه إلا قليل، كما جاء بالآية الكريمة: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ * وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[٥]، فأمره الله تعالى بصُنع سفينة لتكون سفينة النجاة بعد أن يُنزل الله تعالى عقابه على القوم الكافرين، وبعد صُنعه والمؤمنين للسفينة أمر الله عز وجل بركوبها، وأغرق الكافرين بالطوفان، وكانت السفينة نجاة لمن أمن من القوم حيث جعل الله عز وجل باب النجاة بيد المؤمنين أنفسهم بسبب صدقهم وأدائهم للأمانة وهذا المفتاح بيد الخالق الذي يعلم ما تخفي النفوس وما تعلن، وذُكر بالقصة أن أحد أبناء نوح -عليه السلام- رفض الركوب بالسفينة ليكون مع القوم الكافرين الغارقين بالطوفان.

قصة هود

من أبرز القصص التي جاءت في السورة هي قصة النبي هود -عليه السلام- والذي سُميت السورة باسمه، حيث أرسل الله -عز وجل- النبي هود إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ عبادة غيره من الأوثان والأصنام، قومه استخفوا به وسخروا منه، واستمروا في الطغيان والاستهزاء، وذكّرهم بأنه لا يريد على دعوته لهم جزاءً أو شكورًا، وإنما كغيره من الأنبياء والرسل يلتمس أجره من الله تعالى، ودعاهم إلى ترك ما هم فيه من الضلال والالتزام بالشريعة ليكافئهم الله -عز وجل- بفتح خزائن رحمته عليهم ويمُدهم من فضله ويزيدهم قوة إلى قوتهم، فلم يؤمنوا ولم يستجيبوا لدعوته فكان العقاب من الجبار، حيث أرسل عليهم ريحًا قوية استأصلتهم وجعلتهم حصيدًا، ونجى هود- عليه السلام- ومن معه من المؤمنين، وتضمنت قصة هود العديد من العبر وأهمها أن الغرور والكبر والبطر يؤدي إلى العقاب الوخيم، وأن النعم تزداد بشكر الله، ومما جاء بالقصة أن الدعاة يستخدموا الترغيب والترهيب في أسلوب دعوتهم ولا يقتصروا على أحداهما، ومن أهم ما جاء أن الداعي إلى الله عندما يُخلص في دعوته يقف أمام الطغاة كالجبل الشامخ الذي لا تنال منه ريح عاصف .

المبحث الاول

السنن التاريخية، وعلاقة القرآن بالتاريخ من خلال سورة هود(ع)

السنة في الفكر: هي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله وتتحرك بمقتضاها الحياة وما في الكون من ذرةٍ أو حركةٍ إلا ولها قانون أيضاً يتجلى في الأسباب والعوامل المؤدية إليها.ووفق إرادة الخالق المبدع جلّ شأنه[٦].

والسنة بهذا المعنى تنقسم إلى قسمين:

أ- سُنّة إجبارية قاضية: تجري على كل الكائنات بما فيها الإنسان وذلك كالولادة والحياة والأوصاف الخلقية وكل ما في عالم الغيب مما اختصت به القدرة والمشيئة الإلهية من الأمور التي لا طاقة للإنسان بها.

ب- والسُنّة الاختيارية: وهي القائمة على مستوى إرادة الإنسان وما يمكن أن يناله الإنسان أو يسخره في الحياة باستعمال القدرات المختلفة التي زود بها لغرض تحقيق غاية خلقه وسبب وجوده في استعمار الأرض والاستخلاف فيها[٧]؛ فإنّ السنن التاريخية لا تجري من فوق رأس الإنسان؛ بل تجري من تحت يده[٨]، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ }[٩].

فالسنن الحتمية لا تقبل التحدي، والسنن الاختيارية قابلة للتحدي، مع تحمل تبعات المخالفة – طبعا-.

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في كتابه: (قصص القرآن) مبينا أهمية القصة القرآنية في الكشف عن السنن التاريخية : ((ليس القرآن المجيد كتاب تاريخ، أو قصص، أو علوم طبيعية، أو بيان أسرار السماوات، والأرض، وإنَّما هو كتاب: هداية للبشر. وبما أن أفضل الدروس والعبر تكمن في تاريخ الماضين - لا سيَّما الأنبياء العظام، والأمم، والشعوب التي كانت تحكم مساحات كبيرة من الأرض ثم انقرضت، كما تتجلى أعظم دروس التوحيد - ومعرفة الله - في أسرار خلقة العالم - فقد تعرَّض القرآن لهذه الأمور وفق أسلوب خاص؛ ليقدم نماذج، ومثل لها أكبر تأثير في هداية الإنسان))[١٠].

ويقول الشيخ محمد طاهر الخاقاني في كتابه: (القرآن والأصول الموضوعية العامة) في هذا: ((نتحدث عن طبيعة الحركة التاريخية في القرآن، إذ ما نلاحظه في استعراض القرآن للأحداث التاريخية إما على سبيل القصص، أو استعراض حالة الأمم، وسلوكها... يكشف عن طبيعة الحركة التاريخية في القرآن، وإمكانية انتزاع قوانين ثابتة بين الماضي، والحاضر، والمستقبل. وبما أنَّ حركة القرآن في مقام إثبات القوانين العامة، والحكم بالمعيارية الثابتة التي لا يمكن أن تتغير باختلاف الظروف والحالات.

وبالجملة: إنَّ القرآن الكريم يشير إلى اختلاف الحضارات، والكشف عن الصراعات بين الأمم، ولكن ذلك يعطي إثبات القوانين العامة، والأصول الكلية الثابتة بين القوانين للجهة المشتركة، أو ما يعبر عنه: بالقاسم المشترك في جميع القوانين العامة بين الماضي، والمستقبل))[١١].

ومن جملة ما أفاضه القران الكريم في حياة الأمة المسلمة، هو ذلك الأثر الكبير في تحفيز الوعي التاريخي لدى المسلمين بشكل عام والعرب بشكل خاص. وقد التفت كثير

من الكتّاب الغربيين إلى هذا الأثر الذي أحدثه القرآن الكريم لدى المسلمين، يقول (ولفرد كانتول سميث): ((إن المسلم يحس إحساسا جادا بالتاريخ)) على نحو يختلف عن فهم البوذي والمسيحي والماركسي[١٢]. فقد كان القرآن يمثل المصدر الأول لدراسة التاريخ عندهم، بل أقدم وأصدق المصادر المدونة له على الإطلاق[١٣]. فهو التنزيل الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حيث تكفل الله تعالى بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان، كما جاء في قوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[١٤].

وقد أعطى القرآن الكريم للتاريخ مساحة كبيرة بين آياته المباركة، ليؤكّد مدى اهتمامه ورعايته لحركة التاريخ البشري، فقد استخدم أكثر من تعبير عند التحدّث عن الماضي: كالأخبار، والقصص، والأنباء، كما في قوله تعالى في سورة هود: { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}[١٥] ، وقوله تعالى: { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[١٦].

أخباركم: أي أحوالكم التي نخبر عنها، وهي إشارة واضحة إلى ما يصدر عن الناس من أفعال، وما تضمهم من أحوال عبر الزمان، وهو معنى التاريخ.

وقوله تعالى أيضاً في سورة هود : { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [١٧]، وقوله عزّ وجلّ شأنه : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} [١٨].

النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة، وهو تعبير بيّن وواضح عن معنى التاريخ.

ويتضح أن فكرة تسخير التاريخ بما يتصل وبناء شخصية الإنسان المسلم على وجه الخصوص، والأمة الإسلامية على وجه عام بناءً رسالياً متكاملاً، قد تجلّت في القرآن الكريم بشكل واضح وصريح، عندما جعل للماضي قيمة كبيرة في نظر الممنين، ارتبطت بفكرة (العبرة) و (الاتعاظ) بأحداثه وتجاربه. بحيث جعلت من التاريخ قوة متحركة ، ومصدراً حيوياً يمدّ المسلمين بالقوة والإبداع والثبات، ليصنعوا لهم تأريخاً جديداً منفتحاً على رسالة الإسلام الخاتمة لكلّ الرسالات.

وذلك ما نستوحيه من قوله تعالى في حديثه عن بعض أهداف القصص القرآني التي تحدثت عن تاريخ الأنبياء (عليهم السلام): { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}[١٩].

خامساً : نماذج من السنن الإلهية التاريخية في القرآن:

اهتم القرآن الكريم بإرشاد الناس إلى طريق الحق، وكان من أبرز أساليبه في ذلك إرجاعهم إلى عقولهم، وفطرتهم، وحثّهم على التأمُّل فيما حولهم، وقد ركّزَ في ضمن ذلك -أيضا- على التأمل في تاريخ من سبقهم

من الأمم، كما في قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٢٠]، وقوله: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}[٢١]، وقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[٢٢]، وقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآَثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[٢٣]، وقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}[٢٤] تلك الآيات -وغيرها- تحثُّ الناس على التأمُّل في تاريخ من سبقهم؛ لينظروا فيه، ويتمعنوا، فيعرفوا قوانين الحياة التي سارت على أولئك الناس، فيتبعوا في ذلك طريق النجاة، والحق.

تعرَّض القرآن الكريم لبعض ما حصل للأمم السابقة، وحثَّ الناس على التأمل فيه، ولكن ذلك لم يكن بمجرد عرض تلك الحوادث، وبيان نتائجها، بل ركَّز القرآن الكريم على أنَّ ما يذكره لنا عبارة عن قوانين تسري على جميع الأمم، فقوم نوح، وقوم هود، وصالح، وإبراهيم، وغيرهم، -عليهم جميعا وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والتسليم- جرت على أقوامهم نفس تلك القوانين، التي في عمومها تعني أنَّ من يخرجْ عن طاعة الله، ويتحدَّى رسالاته، فيقفْ في وجهها، مصيرُه إلى الهلاك بعذاب أليم، وأنَّ النصر لله، والخير - كل الخير -في إتباع نهج الرسل، والإيمان به، فيؤكد القرآن الكريم أنَّ هناك قوانين ثابتة جرت على عدة أقوام ممن سبقنا، فهي لا محالة جارية علينا.

أولاً : سنة الله في الاختلاف:

إنّ سنّة الاختلاف والتفاوت في بناء الإنسان روحا وفكرا وجسما وذوقا وعشقا، ومسألة حرية الإرادة والاختيار هي واحدة من سنن الخلق والوجود التي تمثل اللبنات التحتية لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان، قال سبحانه وتعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ }[٢٥]، ((لئلا يتصور أحد من الناس أن تأكيد الله وإصراره على طاعة أمره دليل على عدم قدرته على أن يجعلهم في سير واحد ومنهج واحد)) [٢٦]. كما أن نوعا منه – أي الاختلاف – ((لا مناص منه في العالم الإنساني و هو الاختلاف من حيث الطبائع المنتهية إلى اختلاف البنى فإن التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد و هو يؤدي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية و الروحية و بانضمام اختلاف الأجواء و الظروف إلى ذلك يظهر اختلاف السلائق و السنن و الآداب و المقاصد و الأعمال النوعية و الشخصية في المجتمعات الإنسانية، و قد أوضحت الأبحاث الاجتماعية أن لو لا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني و لا طرفة عين))[٢٧].

غالباً ما تكون خواتيم الآيات ميدانا لخلاصة المعنى المراد، وفي هذه الآية تدل خاتمتها على شيء مهم جداً وهو أن الاختلاف الذي خلق الله عليه الناس غير مختص

بزمان معين، وهو بهذا يكون سنة من سنن التاريخ كونها مطردة بحسب تعبير الآية المباركة .

ثانياً: الظلم وعدم إقامة العدل سبب لهلاك الأمم:

من أوضح سنن التاريخ الموجودة في سورة هود هي أن انتهاء الحضارات ما هي إلا نتيجة حتمية للظلم والمعاصي والذنوب، والاستهزاء بأولياء الله الصالحين، تلك سنة الله في خلقه، قال تعالى: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}[٢٨]، وقال: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ* وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}[٢٩]، وقال: { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[٣٠]

إن نهاية الظلم وشيكة، وعاقبته وخيمة، فهو منذر بزوال العمران، وكما يقال: فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة، ويستمر القرآن في تأكيد هذه السنة فيقول : { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}[٣١]، وقال { وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [٣٢]، وقال: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[٣٣]، وقال: { الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ}[٣٤]، وقال: { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}[٣٥]، ((فالأخطاء المتراكمة هي السبب الحقيقي الذي يدمر الحضارة ويوقف دورانها، ويأذن لغيرها بالقيادة، حتى تموت الأمم وتسقط الحضارات من داخلها قبل أن يسقطها أعداؤها... وقدرة الأعداء في التغلب إنما تكون فاعلة عندما تجد الاستعداد والضعف الذي يمكِّن لها، والأخطاء الذاتية المتراكمة التي تحصرها قبل أعدائها)) [٣٦].

فمن السنن التاريخية في القرآن الكريم والتي تبدو واضحة في هذه السورة ، أن هلاك وسقوط الأمم يكون بفشو الظلم، وعدم إقامة العدل، فإذا اختلت الموازين، وانعدمت القيم، وتحكم الأقوياء في الضعفاء، ووزع المجتمع إلى سادة وعبيد، وأخذ الأقوياء يتلاعبون بحدود الله على هواهم فقد آذنهم الله بالهلاك، قال تعالى: { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد}[٣٧]

ثالثاً: إذعان الأمة سبب في هلاكها

ومن سنن الله تعالى أن جعل عاقبة السكوت أو الرضا بمرتكب الجريمة سببًا في شمول العذاب أو الإهلاك العام، { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}[٣٨]

وإنّ الرضا بالديكتاتورية هي الخطوة الأولى إلى المجزرة، لان الديكتاتورية تسلب أعز شيء عند الإنسان هو عقله وتفكيره فيكون

ضررها أكبر من نفعها مهما كان نفعها كبيراً، ولعل من ابرز الامثلة على ذلك هو إذعان قوم فرعون له والرضا المطلق دون معارضة حتى وصل به الامر الى ادعاء الربوبية، إلا ان ذلك جعل منهم ضحية لهذه الطاعة فأغرقهم الله ، ويشبه ذلك ما عاشه العراق على مدى عقود من الزمن تحت سلطة ظالمة، وبالرغم من ظلمها فإن ثمة فئة من الناس كانت مؤيدة، وحتى هذه الفئة طالتهم يد الظلم مع تأييدهم المطلق، وما حصل مع قيادات بعثية في احدى المجازر التي ارتكبها صدام خير دليل على أن ادوات الظلم يوما ما ستكون ميداناً للظلم، بسبب الاذعان المطلق.

من خصائص السنن التي ذكرها الشهيد الصدر هي خاصية الاطراد أي انها قابلة للتحقق في مختلف الازمنة، وهذا الامر يزداد وضوحا وتحققاً في واقعنا المعاصر، فمعظم البلدان التي سادها الظلم من جهة الحكام ، والخضوع من جهة الرعية كانت نهايتها الانهيار اما عن طريق الاحتلال او عن طريق الفوضى الداخلية، وهذا ما تعيشه معظم البلدان العربية التي غلب على حكمها الظلم والاضطهاد، ومن ذلك نجد ان الشعوب القوية المتسلحة بالارادة لايمكن قهرها بسهولة فالعزة هي مظهر القوة في الحقل الاجتماعي ، والله تعالى لا يدع قيم الحق قائمة في النفوس والعقول وبين أضلع الكتب والخطب ، بل يجسدها في ضمير الواقع فإذا بالظلم يتحول إلى ظلمات ، والجريمة إلى عقاب ، والفساد إلى خراب[٣٩].

إنَّ أثر الركون الى الظالم ومجاراته تورث العذاب الاخروي فضلاً عن الذل الذي يعيشه الانسان تحت وطأة ذلك الظالم، قال تعالى: {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ }[40]، فعقاب هذه السنة غير مقتصر على ساحة الحياة الدنا، لذا نجد عبر التاريخ من قارع الظالم مع قدرته على السكوت والعيش بسلام، فكان من الممكن مثلاً أن يعيش الامام الحسين (ع) بأمان بمجرد مبايعة الظالم، وكان من الممكن ان يسلم عبد الله بن عفيف من بطش الظالم ويكتفي بتاريخه الجهادي بمجرد الجلوس ببيته واعتزال الناس، وكان من الممكن أيضاً أن يعيش الامام الخميني في فرنسا دون ان يكون نداً للظلمة ودون ان يفني نفسه في سبيل تغيير من اقصى اليسار الى اقصى اليمين ، وكان من الممكن أن يكون الشهيد الصدر بأمان عند اكتفائه بالدرس الفقهي وصلاة الجماعة، وهكذا دواليك.

المبحث الثاني

الابعاد الفكرية للحوار في سورة هود (ع)

لاشك أن المستقرئ للقرآن الكريم يجد فيه اسلوباً متميزاً، تجلى في كثير من آيات هذا الكتاب العزيز، ومن ذلك ما ورد في سورة هود(ع)، إذ نجدها عامرة بالحوار، ومن نماذج الحوار فيها الآتي:

أولاً: الحوار بين الله تعالى ونوح (ع)

دعى نوح (ع) قومه الف سنة الا خمسين، فلم يؤمن معه ويصدقه إلا قليل منهم، وهنا لابد ان تجري عليهم سنة التاريخ بإهلاك الكافرين، وكان منهم ابن نوح (ع)،

الأمر الذي دعى نوح (ع) للمبادرة الى الحوار مع ربه وهو يعيش حالة من الصراع ، بين النبوة بكامل جلالها ، وعاطفة الابوة بكل غريزتها، فرجع الى ربه محاوراً {وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ }[٤١] ، فأجابه الله مبينا له أن رابطة الدين، أولى من رابطة النسب، إذ قال تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }[٤٢] ، فما كان من نوح النبي (ع) إلا ان يذعن لأمر الله وأن يجيبه جواب العبد المطيع المؤمن بحكمة الله ، مع شيء من الاعتذار {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ }[٤٣] ليجيبه الله بعد ذلك مطمئناً : {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ }[٤٤] .

إن الحوار المذكور آنفاً الذي ذكره لنا القرآن ينطوي على فوائد ومضامين تربوية عميقة أبرزها أن لا يضيق الانسان برأي مخالف لما يراه، ففي هذا المثال الحواري نجد أن الله تعالى وهو القاهر فوق عبادة، يتعامل مع طلب نوح عليه السلام بمنطق الإقناع لا منطق الغضب والسلطة والقوة، اعتماداً على الحجة والمنطق، حتى يتضح الحق فيرجع المجانب عن رأيه ويتوب الى الله [٤٥].

ثانياً: الحوار بين نوح(ع) وابنه

يحكي لنا القرآن الكريم في هذه السورة المباركة، حواراً آخر، وهو مادار بين نوحٍ عليه السلام وابنه، فقد بادر نوح ابنه محاوراً: { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ }[٤٦]، وفي هذا النص دلالة ايحائية على مدى العطف الابوي الذي كان يتكلم به نوح ، ونبرة الرحمة والرغبة في نجاة ابنه من الغرق، وفي الوقت ذاته نجد الطرف الآخر يجيب بكل تكبر وغطرسة، متوكلاً على اسباب واهية لا قيمة لها امام قدرة لله وارادته، إذ يحكي لنا القرآن جوابه {قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء ... }[٤٧]، ليجيبه نوحٍ بمنطق المتيقن العارف بمآل الامور { قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ } ، ليسدل الستار على هذا الموقف الحواري، منطلقاً من الحقيقة التي تيقن منها في حواره مع الله ، وهي أن صلة الدين هي الاساس لا صلة القرابة، ولعل ذلك هو البعد الفكري الاوضح، فمما سبب ضعف الامة وتداعيها هو تشدقها بالقومية دون الاسلام ، الامر الذي جعلها محط اطماع الاستكبار ومزقت شر ممزق، فهذا الحوار يكشف لنا حقيقة مهمة هي أن الدين هو الرابطة التي يجب تؤخذ بعين الاعتبار دون الروابط الدنيوية الاخرى.

ثالثاً: الحوار بين نوح (ع) وقومه

تضمنت هذه السورة المباركة ما دار من حوار وجدل بين نوح (ع) وقومه، إذ ابتدأ القرآن حكاية الحوار بما ورد على لسان نوحٍ عليه السلام إذ قال : {أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ }[٤٨] ، إلا ان طرف الحوار الآخر المتمثل بقومه اجابوه بالسخرية والاستهزاء، فكان جوابهم {فَقَالَ

الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }[٤٩] ، إلا ان هذا الجواب مع صلابته وجفاف منطقه لم يثنِ نوح (ع) عن اداء مهمته فاستمر بنصحهم ودعوتهم الى الله تعالى ، غير انهم واصلوا الحوار الذي يحمل في طياته التعجيز والتذمر والسخرية إذ قالوا {قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }[٥٠].

تكشف لنا هذه القصة بعداً فكرياً مهماً وهو طبيعة المتصدين للمصلحين، ففي إحدى محاضرات مادة الفكر الاسلامي المعاصر وجهتُ سؤالاً لأستاذ المادة الاستاذ الدكتور(عامر عبد الامير الجبوري) مفاده: أنَّ جميع المصلحين والذين يصلون الى درجة الفناء في الله والقرب منه وعلى رأسهم الانبياء يتعرضون للقتل والنفي وربما اتهامهم بالجنون لماذا؟

حينها رسم مثلثاً جعل في احد رؤوسه أحد اقطاب المتصدين للمصلحين وهم اصحاب المصالح وهؤلاء عبر عنهم القرآن الكريم بـ(الملأ)، وفي هذا الحوار يبرز علية القوم فيتهمون اتباع نوح (ع) بالوضاعة وبأنهم أراذل القوم ويعتبرون هذه الحالة من سلبيات دعوته التي لم تستقطب الملأ منهم.

رابعاً: الحوار بين هودٍ وقومه

رسمت لنا سورة هود مشهداً رائعاً للحوار الذي دار بين هود (ع) وقومه الذين كانو بمنتهى اللجاجة والعناد والتكبر، إذ بدأ هود (ع) بدعوتهم كسائر الانبياء قال تعال: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ }[٥١]، {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ }[٥٢]، ولم يختلف جوابهم كثيراً عن جواب قوم نوح ، فكان الرفض سيد الموقف ، والعناد هو الغالب على الحوار إذ قالوا: {قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ }[٥٣]، إلا ان ذلك لم يثنِ هودا (ع) من الاستمرار بدعوته لهم وهنا يبرز البعد الفكري في هذه القصة ، متمثلاً في صلابة القائد الإلهي الذي لا يحسب كثرة الأتباع نصراً ، بل يرى أن المعيار الحقيقي للنصر هو الثبات على المبدأ، فنجد هود (ع) يقف بوجه هذا الرفض ليعلن موقفه صراحة دون تردد فيقول معلناً: {إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }[٥٤]

ولعل في تاريخنا المعاصر الكثير من الشواهد التي تقف شاخصة لمن يريد أن يقتدي ويعتبر، فما نراه اليوم من تكالب قوى الشر ضد الحركات الوطنية التحررية وتصنيفها على لوائح الارهاب لا يثني قادة هذه الحركات ومن يدعمها حتى اصبحت اليوم رقم صعب في معادلة السياسة الدولية رغم الحرب الاعلامية التي لا هدف لها سوى تمزيق النسيج الاسلامي وطمس هوية الاسلام من خلال اضعاف الدولة الأقوى التي تدافع عن الاسلام بشكل صريح دون خوف ولا وجل رغم الحصار والعقوبات

وتحريك الشارع ضدها ، فلم يزيدها ذلك الا صلابة وحكمة أوصلت امريكا وحلفائها الى أن يأتوا صاغرين الى طاولة الحوار من موقع ضعف لا قوة ، والله ناصر المؤمنين.

المبحث الثالث

التحديات التي تواجه حركة الدين من خلال سورة هود

في كل زمان ومكان توجد فيه دعوة الى الاصلاح وسلوك الطريق الذي رسمه الله لعبادة، يقابله وجود آخر يجتهد من اجل افشال كل جهد يبذله المصلحون، وليس ادل على ذلك مما نواجهه اليوم في مجتمعنا من استهتار واضح بالقيم الدينية واستهداف أشد وضوحاً لعلماء الامة، إذ نرى انجراف الشباب العراقي في السنوات الاخيرة الى ما يخطط له الغرب بسهولة فحين تجد من يتطاول على المفاهيم الدينية ورموز الدين بحجة الفاقة والبطالة تدرك بوضوح أن اعداء الاسلام نجحوا بتهجين الشباب بشكل خاص والمجتمع بشكل عام ودفعهم للانسلاخ من عقائدهم واخلاقهم.

هذا السلوك لم يكن وليد الساعة فوجوده مقترن بوجود أهل الاصلاح، ولعل أشد مواجهة قد يتعرض لها الانبياء هي مواجهة عامة الناس الذين يحدوهم الجهل والتبعية للمستكبرين.

تكشف لنا سورة هود مواقف كثيرة من قبيل ما ذُكر آنفا مثلت هذه المواقف تحديا لمسيرة الانبياء ومن أبرز هذه التحديات:

أولاً: الدعوة الى فصل الدين عن حياة المجتمع

التحدي الأول الذي يلقاه كل نبي من الأنبياء هو مواجهة اصحاب النفوذ والسلطان والذين يعبر عنهم القرآن الكريم (الملأ) هؤلاء الذين لا تروق لهم سيادة الدين فيتجهوا نحو تلقين المجتمع واقناعهم بضرورة فصل الدين عن الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وذلك تمهيدا لسحب البساط من تحت اقدام الأنبياء ومن يقوم مقامهم، والكثير منهم يرون أن الكتاب الذي جاء به النبي (عليه السلام) ما هو إلا كلام البشر، والقليل المتبقي ليس مطمئنا لكون هذا الكتاب رسالة من عند الله، ولذلك هم يستخفّون بآراء المؤمنين في الدين، وفي السياسة والاجتماع والاقتصاد، وجميع شؤون الحياة، ويعتبرونهم أراذل المجتمع، وأن كل من يبدي رأيه من خلال ما يقرره الدين؛ فهو بادئ الرأي، ويذكر الله عز وجل مثل قول هؤلاء: ((فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ))[٥٥] ، فقوم نوح وصفوا من اتبعه بأنهم حقراء لا قيمة لهم، سطحيو الرأي، وأن هم أهل الرأي المستنير ومن له حق التفكير عن الآخرين، وهكذا هم العلمانيون اليوم في صدهم عن الرسالة الإلهية، واتباع طريق الهداية، فقد كثرت في وقتنا هذا الدعوات الى فصل الدين عن الدولة، وتصوير الدين للناس وكأنه السبب في تأخر ازدهار البلدان، وهذا الأمر ليس من الحقيقة في شيء، فثمة

دول لادين لها تعيش واقعاً مؤلماً متخلفاً، وفي الوقت ذاته نجد دولاً إسلامية تحكمها حكومات اسلامية وهي شاخصة تضاهي الدول العظمى في اقتصادها وصناعتها وبنيتها التحتية فضلاً عن القوة العسكرية التي تمتاز بها وليس انصع مثالاً على ذلك من الجمهورية الاسلامية في إيران التي تقودها حكومة علمائية، أثبتت للجميع سقوط النظرية العلمانية المنادية بضرورة فصل الدين عن الدولة.

ثانياً : الدعوة الى تحجيم دور الدين والعبادة ومظاهرها

توجه المعارضون للأنبياء الى صرف تفكير الناس إلى ما يخدم الإنتاج المادي والصناعة والقوة، وليس إلى ما يخدم الإنسان باعتباره كائنا ذا نفس وروح وجسم، فكانت دعوتهم عبارة عن حق اريد به باطل، فالقوة والصناعة والتطور لا تتقاطع مع الايمان بالله تعالى كما يصوره اعداء الانبياء آنذاك والعلمانيون اليوم، فبين الله تعالى لهم في هذه السورة على لسان نبيه حقيقة مهمة هي أنَّ وفرة الإنتاج والصناعة والقوة بلا قيم إنسانية وأخلاق لا تحقق كمال الإنسان والمجتمع، فوفرة الإنتاج المادي والتضخم الصناعي وسباق القوة؛ في غياب التوجيه الأخلاقي، ومنطق العقل والحكمة؛ دمار للبشرية وللعالم، ولذلك شرع الله الاستغفار، وهو المبدأ الديني الأخلاقي الذي يعطي أهمية لعلاقة الإنسان بالله، وقيمة تسخير الطبيعة لصالح الإنسان، باعتباره مؤتمنا في الأرض، فيعمل على الانتفاع بها دون إفساد لها، ووفرة الإنتاج والصناعة والقوة بلا ربط علاقة بالله، وطلب المغفرة منه؛ لا تحقق للمجتمع شيئا قيميا، ولا تدوم منفعتها للإنسان، إذ سرعان ما ينتهي ذلك بسبب الترف، فيحل بالمجتمع البوار والكساد، فالمجتمع الكامل هو الذي يربط وفرة الإنتاج بالربوبية وعنايتها بالإنسان، كما قال الله تعالى: ((وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ))[٥٦] ، فهذه الآية تفيد في أن الاستغفار والتوبة يسهم في نزول الرحمة على المجتمع، وجلب الرزق إليه، وإخراجه من ضنك المعيشة إلى رغدها، والقوة والصناعة مطلوبتان، لكن وفق ما تقتضيه حكمة الله من خلق الإنسان، وهي حِكم ثلاث، عبادة الله وحده، والاستخلاف في الأرض، وتحقيق العمران، إذ ليس وجود الإنسان عبثا في هذه الأرض، وليس وجوده لتحصيل المتعة واللعب واللهو، قال الله تعالى: ((هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ * إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ))[٥٧] ، قوله عز وجل: ((وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)) تفيد أن إرادة الله للإنسان استعمار الأرض، هي حكمة من حكم خلق الإنسان ووجوده في الأرض

ثالثاً: الدعوة الى الانحلال والتهتك

مما ورد في هذه السورة هي الاشارة الى تحدٍ واجه النبي الا وهو تحدي الدعوة الى الانحلال بابشع صورة إذ يصور لنا مشهدا مؤلم جدا في قوله تعالى: ((وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ

مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ))[٥٨] .

من اخطر الآفات التي تواجه حركة الدين هي آفة الغريزة وتغليبها على القيم والتشريعات، وهذا ما يعاني منه مجتمعنا اليوم، فحين نرى علم الشاذين جنسياً ممن يعبر عنهم ب(المثليين) يرتفع في بلد مسلم مثل العراق بلد المقدسات ، علينا ان نستشعر الخطر المحدق، وحين يصبح تشبه الرجال بالنساء امر مألوف علينا ان نستشعر الخطر، فالقرآن اخبرنا بعاقبة تجاهل هذه الاخطار، وجعل من الحوادث التي مرت بالانبياء بمثابة عبرة لنا ولاسيما اننا نمر بما يشبه ما مروا به، ولابد لعقلاء القوم من المبادرة في توعية المجتمع وطرد هذه الافكار المنحرفة، وأن تكون دعوات الإصلاح قولا وفعلا، وبكل الوسائل المادية والمعنوية، قال الله تعالى: ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ))[٥٩]

رابعاً: الاستهزاء بالشعائر الدينية والسخرية ممن يمارسها

من التحديات التي واجهت الأنبياء والتي كشفت عنها سورة هود هو تحدي الاستخفاف بشعائر الدين وتسفيه من يقوم بها، فقد خاطب قوم شعيب نبيهم ساخرين، ((قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ *إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ))[٦٠] ، قالوا له ذلك سخرية من تعبده وتنسكه. وهذا الخطاب نجده اليوم يتكرر بوضوح عن طريق الجهاز الإعلامي، ووسائله الفكرية والمعرفية المختلفة؛ للقضاء على كل مظاهر التدين والممارسات الشعائرية، وتوجيه الناس إلى اقتناء كل ما هو مادي وحسي يوفي بالأغراض الجسمانية، وقطع الطريق عن الثقافة الروحية، وإقصاء كل ما يدعو إلى الفضيلة، وإدخال الرذيلة إلى البيوت، عن طريق القنوات الفضائية، والبرامج الحديثة ، ومن أمثلة ذلك ما تسوقه وسائل الاعلام من افكار مستغلة الوضع الخدمي المتدني في ابعاد الناس عن شعائرهم وما يقدسون.

إلا ان القرآن يرسم لنا طريق الخلاص ووسيلة الثبات وعدم الانسياق الى دعوات الابتعاد عن الدين إذ يؤكد في سورة هود أنه عند طغيان النظام العلماني على المؤمن أن يكثر من إقامة الصلاة، والاستعانة بها، والصبر على الفتن الظاهرة والباطنة، قال الله تعالى: ((وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ * إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ * ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ))[٦١]

الخاتمة

بعد هذه الاطلالة المقتضبة على سورة هود يمكن ان نخرج بجملة من النتائج ابرزها:

١- ان هذه السورة وسائر سور القرآن الكريم تحتوي الكثير من المعارف الفكرية والنظريات الاجتماعية.

٢- سورة هود تعد من السور الزاخرة بالنماذج التطبيقية للسنن التاريخية في القرآن الكريم.

٣- ما تضمنته سورة هود من وقفات حوارية كشفت عن جملة من المضامين التربوية فيها اهمها ادب الحوار مع الاخر.

٤-الثبات على المبدأ من اهم الدروس الفكرية التي يمكن ان تستنبط من سورة هود ، من خلال التعرف على منهج الانبياء بالتعامل مع اقوامهم .

٥- ما تعرض له الانبياء في زمنهم من تحديات يشبه ما يتعرض له علماء الدين، والمجتمع المتدين في عصرنا الحاضر.

الهوامش:

١- هود : ١١٤.
٢- هود : ٦٠.
٣- هود : ١٢٠.
٤- هود : ٢.
٥- هود :٤٠.
٦- ينظر: هيشور، محمد، سنن القرآن وسقوط الحضارات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط/١، القاهرة، ١٩٩٦م: ٢٧
٧- ينظر: الوزير، ابراهيم بن علي، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دار الشروق،القاهرة، ط/٤، ١٩٨٩م : ١١
٨- ينظر: الصدر ، محمد باقر، مقدمات في التفسير الموضوعي، دار التوجيه الاسلامي، ط/١،بيروت، ١٤٠٠هـ: ٦٩
٩- الرعد : ١١
١٠- الشيرازي، ناصر مكارم، قصص القرآن ، دار جواد الأئمة ، ط/١، قم : ٥
١١- الخاقاني، محمد طاهر، القرآن والأصول الموضوعية العامة : ٣٩٤/١.
١٢- ينظر: الجندي، أنور، الإسلام وحركة التاريخ، دار الكتاب اللبناني،ط/٨، بيروت، ١٩٨٦م: ٤٨١.
١٣- ينظر: سالم، عبد العزيز، مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية،مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠١٠م: ١٦٩.
١٤- الحجر: ٩.
١٥- هود: ٤٩.
١٦- التوبة: ٩٤.
١٧- هود: ١٢٠.
١٨- هود: ١٠٠.
١٩- هود: ١٢٠.
٢٠- التوبة : ٧٠.
٢١- يوسف: ١٠٩.
٢٢- الحج: ٤٦.
٢٣- غافر: ٨٢.
٢٤- محمد: ١٠.
٢٥- هود: ١١٨.
٢٦- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٧ / ١٠١.
٢٧- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ، قم المقدّسة.: ٦٠/١١.
٢٨- النحل: ١١٢- ١١٣.
٢٩- هود: ٣٦- ٣٧.
٣٠- هود: ٨.
٣١- هود: ٦١.
٣٢- هود: ٦٧.
٣٣- الأنعام: ١١.
٣٤- الأعراف: ٩٢.
٣٥- هود: ٩٤.
٣٦- حسنة ، عمر عبيد ، حتى يتحقق الشهود الحضاري، المكتب الإسلامي، ط/١ ،بيروت، ١٩٩١م: ٤٨.
٣٧- هود: ١٠٢.
٣٨- هود: ٦٥.
٣٩- المدرسي، محمد تقي، من هدي القرآن ، دار محبي الحسين عليه السلام ، ط/١، ١٤١٩هـ: ٥/ ٦٥.
٤٠- هود١١٣
٤١- هود٤٥.
٤٢- هود٤٦.
٤٣- هود٤٧.
٤٤- هود٤٨
٤٥- ينظر: ابو لحية مجدي عايش، النظم القرآني في سورة هود، رسالة ، الجامعة الإسلامية /غزة، ٢٠٠٩م: ص ٣٢٣.
٤٦- هود٤٢
٤٧- هود٤٣
٤٨- هود٢٦

٤٩- هود٢٧
٥٠- هود٣٢
٥١- هود٥٠
٥٢- هود٢٩
٥٣- هود٥٣
٥٤- هود٥٤
٥٥- هود:٢٧
٥٦- هود:٥٢
٥٧- هود:٦٢
٥٨- هود:٧٨
٥٩- هود:١١٧
٦٠- هود:٨٧
٦١- هود:١١٤-١١٥

المصادر

القرآن الكريم

١- ابـو لحيـة مجـدي عايـش، النظـم القـرآني في سـورة هـود، رسـالة ، الجامعـة الإسـلامية /غـزة، ٢٠٠٩م:
٢- الجنـدي، أنـور، الإسـلام وحركـة التاريـخ، دار الكتاب اللبنـاني، ط/٨، بيروت، ١٩٨٦م:
٣- حسـنة ، عمـر عبيـد ، حتـى يتحقـق الشـهود الحضـاري، المكتـب الإسـلامي، ط/١ ،بـيروت، ١٩
٤- سـالم، عبـد العزيـز، مناهـج البحـث في التاريـخ الإسـلامي والآثـار الإسـلامية، مؤسسـة شـباب الجامعـة، الإسـكندرية، ٢٠١٠م:
٥- الشـيرازي، نـاصر مـكارم، الأمثـل في تفسـير كتـاب اللـه المنـزل :
٦- الشـيرازي، نـاصر مـكارم، قصـص القـرآن ، دار جـواد الأئمـة ، ط/١، قـم :
٧- الصـدر ، محمـد باقـر، مقدمـات في التفسـير الموضوعـي، دار التوجيـه الاسـلامي، ط/١،بـيروت، ١٤٠٠هـ:
٨- الطباطبـائي، محمـد حسـين، الميـزان في تفسـير القـرآن، ، منشـورات جماعـة المدرسـين في الحـوزة العلميـة ، قـم المقدّسـة.:
٩- الغلبـزوري، توفيـق، خصائـص السـنن التاريخيـة في الرؤيـة الإسـلامية، بحـث ، مجلـة كليـة اصـول الديـن، الربـاط المغـرب، العـدد ٥٦، ٢٠٠٦م :
١٠- المـدرسي، محمـد تقـي، مـن هـدي القـرآن ، دار محبـي الحسـين عليـه السـلام ، ط/١، ١٤١٩هـ
١١- هيشـور، محمـد، سـنن القـرآن وسـقوط الحضـارات، المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي، ط/١، القاهـرة، ١٩٩٦م:
١٢- الوزيـر، ابراهيـم بـن عـلي، عـلى مشـارف القـرن الخامـس عـشر الهجـري، دار الـشروق، القاهـرة، ط/٤، ١٩٨٩م :